



كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: شروط الالفاظ والمعاني عند الجاحظ

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Conditions of words and meanings at Al-Jahidh:

مقرر الفصل الأول

شروط الألفاظ والمعاني عند الجاحظ

المتأمل في كتاب "البيان والتبيين" يجد الجاحظ قد حدد شروطاً للألفاظ، إذ جعل بلاغة اللفظ مقابلة لشرف المعنى، لذا أوجب أن يكون اللفظ الجيد شيقاً عذباً وفخماً وسهلاً.

وقال: (وكما لا ينبغي أن يكون عامياً وساقطاً سوقياً، فكذلك لا ينبغي أن يكون وحشياً).

وقد أكثر من التنبيه على وجوب تجنب الوحشي من الكلام أو الحوشي منه، لذلك قال إبراهيم بن المهدي لكاتبه عبدالله بن صاعد: (إياك وتتبع وحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العيُّ الأكبر، وعليك بالسهل مع تجنب السفل)

كما حدد شروط فصاحة الكلام، ألا يكون غريباً، فإذا تعمّد المتكلم إيراد الغريب، فذلك هو التشادق، كذلك تجنب الفأفة، والقرقرة، كما أن تجنب الغريب لا يعني استعمال السوقى.

كما أوصى الجاحظ عدم التكلف في الألفاظ، بل التوسط، ففي الاقتصاد بلاغ، وفي التوسط مجانية الوعورة.

واستشهد بقول الشاعر:

وقبرٌ حربٍ بمكانٍ فقيرٍ ... وليس قربَ قبرٍ حربٍ قبرٌ

لذلك رأى الجاحظ: (أن أجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ أفرغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان

وأجزاء البيت ... وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان ... والأخرى تراها سهلة رطبة مواتية سلسلة النظام خفيفة على اللسان حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة).

ورأى الجاحظ أن يكون الخطاب موافقاً لمقام المخاطب، لذا فإنَّ الألفاظ التي يخاطب بها المتكلمون هي غير الألفاظ التي يخاطب بها التجار والعوام، كما أنَّ الألفاظ التي يخاطب بها أهل المدينة هي غير الألفاظ التي يخاطب بها أهل البادية، لكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل، لذا قال: (الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النَّاس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي، وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات. فمن الكلام الجزل والسخيف، والمليح، والحسن، والقبيح والسمح، والخفيف، والثقيل، وكلُّه عربي، وبكلِّ قد تكلموا، وبكلِّ قد تمارحوا وتعايبوا).

كما أكد الجاحظ أنَّ هناك ضرورياً للألفاظ والمعاني تختلف بحسب حال الخطاب ولكلِّ (ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلِّ نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف، والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية).

رابعاً: موقفه من القديم والمحدث

لم يكن الجاحظ متعصباً لقديم لقدمه أو لحديث لحداثته، بل نظر الى الصنفين نظرةً وسطيةً؛ ولكنه ميَّز بين شعر الأعراب والمولدين، فرأى أنَّ عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنايبة.

أراد القول إنَّ العرب قد امتلكوا الشاعرية بطبعهم وسجيتهم؛ لأنهم ولدوا في بيئة خصبة بلغتها ومفرداتها وأخيلتها من دون حاجة إلى تعلم واكتساب، ولكنه في الوقت نفسه لم يرتض

للنقاد الذين أنكروا الشعر المحدث قائلًا: (وقد رأيت اناسًا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها، ولم أر قط إلا في رابضة للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفي أي زمان كان).

وقد تمثل الجاحظ أشعار الجاهليين والاسلاميين والمولدين، فلم تأخذه العصبية في الحكم، بل حكّم الموضوعية في نظره إلى الشعر، فعندما تحدّث عن شعر بشار، قال: (كان شاعرًا راجزًا وسجّاعًا خطيبًا ...) ثم قال: (والمطبوعين على الشعر من المولدين بشار، والسيد الحميري، وأبو العتاهية، وابن أبي عيينة ...).

وقد فضّل الجاحظ بشاراً على المولدين في قوله: (وكان العتابي يحتذي حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب من بشار، وابن هرمة). وعندما ناظر بشار حماد عجرد، لم يرتض الجاحظ هذه المناظرة؛ لأنّ حماداً في الحضيض وبشاراً مع العيوق، وليس في الأرض مولد قروي يُعد شعره في المحدث إلا وبشار أشعر منه).

وما يدل على إعجاب الجاحظ بشار، المفاضلة التي أجراها بين قول بشار:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وقول كلثوم بن عمرو العتابي:

تَبْنِي سَنَابِكُهُمْ مِنْ فَوْقِ أَرْؤُسِهِمْ ... سَقْفًا كَوَاكِبُهُ الْبَيْضُ الْمَبَاتِيرُ

علّق مفضلاً قول بشار: (وهذا المعنى قد غلب عليه بشار) والموقف نفسه من أبي نواس، إذ جعله في مرحلة تالية لبشار من ناحية الإجادة والبراعة في التصوير.

إذ فضّل أبياتاً لأبي نواس على أبيات لمهلهل بن ربيعة. ومع ذلك فإنّ الجاحظ قد أشار إلى مساوئ أبي نواس في مبالغاته وضعف عقيدته. إذ انطلق الجاحظ في موقفه النقدي من مقياس الجودة والإبداع من دون الركون إلى الهوى الشخصي في تفضيل القديم على المحدث؛ لأنّ الجيّد من الأشعار موجود في كل زمان ومكان